الباب الثاني

(رأيٌ ومشورة)

١- ألجم لساني

٢- أخو نورة

٣- الشُّيوخُ أبخَص

ألجم لساني

للحوار رجالُه، وللنِّقاش فرسانُه. والملكُ عبدُ العَزيز من المحاورينَ الدُّهاة، حازمٌ في حواره، مقنعٌ في نقاشه. وكان للدخان في المملكة حكايةٌ، وله عند الأسْلاف روايةٌ، فشُربُه ممنوعٌ، وتَعَاطيه مُحَرَّمٌ، ومن ابتُليَ به لَمْ يتناولْه إلا في السرِّ، لكنَّ المشكلةَ في الرَّائحَة، فهيَ الفاضحةُ والكاشفة.

وكانت الحساسيَّةُ في الرِّياض أكبرَ، والتشدُّدُ في العَاصمة أقوَى.

وكان الملكُ عبدُ العَزيز يتعاملُ مع هذا الأمْر بعَقْل وذَكَاء، وفطْنَة ودَهَاء، حتَّى إنَّه إذَا هَمَّ بزيَارة شَخص يُدخِّنُ يُرسلُ إليه من يُخبرُه بقُدومه ومعَه البُخورُ لتَطْهير الغُرفة والخَيْمة؛

لكَيْ تزولَ الرائحةُ الفاضحةُ.

وكانَ يحترمُ العلماءَ ويقدِّرُ رأيَهم، ويَحْزمُ في هذَا الأمْر، ويقابلُ زوَّاراً يُدخِّنون، ويعلمُ أولئكَ الضيوفُ أنَّ الملكَ لا يدخِّنُ، وأن التدخين في المملكة ممنوعٌ، فيجاملونَ الملكَ ويحترمونَه، ولا يدخنونَ بحَضْرَته. فتشرْشلْ ذلكَ القائدُ الإنجليزيُّ المشهورُ كان السيجار لا يفارقُ فَمَه. وحينَ قابلَ الملكَ عبدَ العزيز امتنعَ طوالَ اجتمَاعه به عَن التَّدخين؛ وفي ذلكَ إشارةٌ إلى مَنزلة الـمَلك البَطل، ومَكَانةُ الرَّاحل عندَ العُظماء والزُّعَماء.

وجاءَ طَلْعَتُ حَرْب إلى المملَكة في عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، وسألَ الملكَ عبدَ العزيز عمَّا يُقال من تَحريم شُرب الدُّخان في المملكَة، وكانَ

جـوابُ الملك يُنبئُ عن بَرَاعَـتـه في الحـوَار، ويكشفُ عن إنسانيَّته وحرْصه على شَعبه، واهتمَامه باقتصَاد وطَنه، ويدلُّ علَى دهائه وسَيطرته علَى الموْقف. فقدْ جعلَ الملكُ من المناقشَة والحوَار، والسُّؤال والجوَاب حُجَّةً لموْقفه.

بَل أحسبُه قَد قَرأ قصة يحيَى بن أكثَمَ حينَ تولَّى قضاءَ البصرة وسنُّه عشرونَ سنةً ونيفٌ، فقد استصغَره أهلُ البَصْرة فسألوهُ وقالُوا له: كَمْ سنُّ القَاضي؟

فعلمَ أنَّهم قد استصغرُوه، فقالَ: أنَا أكبرُ من عتَّاب بن أسَيْد الذي وجَّه به النبيُّ ﷺ قاضياً على مكةَ يومَ الفَتْح، وأنا أكبرُ من مُعاذ بْن جَبل الذي وجَّه به النبيُّ ﷺ قاضياً على أهْل اليَمَن، وأنَا أكبرُ من كَعْب بن سُوار الذي وجَّه به عمرُ

ابنُ الخَطَّاب ـ رضيَ اللهُ عَنْه ـ قاضياً علَى أهْل البَصْرة. فَجَعَل من جَوَابه وردِّه حجةً ودليلاً.

وذلك الملكُ عبدُ العزيز قد جعل من السُّؤال والجَواب حجةً، ويعلمُ أنَّ لكلِّ مَقام مقالاً. ولهذَا قالَ لطلعَتَ حَرْب: بكَمْ يدخِّنُ أفقرُ إنسَان عندكم يوميّا؟

قالَ طلعَتُ: بقرشَيْن.

قالَ عبدُ العَزيز: ما عددُ الذين يدخِّنُونَ على أقلِّ تَقدير؟

قالَ طلعتُ: خَمسةٌ في المائة.

قالَ عبدُ العزيز: كم تقدِّرُ عددَ سكَّان بلادنا؟

قالَ طلعتُ: حوالى خَمسة مَلايينَ.

قالَ عبدُ العزيز: إذَا لم نَنْظُر لجَانب التَّحليل

والتَّحريم وأبيحَ الدخانُ في بلادنَا فكَم سيكونُ عددُ المدخِّنينَ عندَنا علَى هذَا القياس؟

قالَ طلعتُ: سيكون العددُ ربعَ ملْيون.

قالَ عبدُ العزيز: وكَم سيُنفقون من جَرَّاء ذلكَ؟

قال طلعتُ: خمسةَ آلاف جُنيه في اليَوم؟

قالَ عبدَ العَزيز: ليسَ لدينَا دُخَان يزرعُ، ولا يُوجَدُ لدينا شيء من آلاته؛ فكُلُّه يأتي من الخَارج.

قالَ طلعتُ: هو كذلكَ.

قالَ عبدُ العزيز: أيْ أنَّنا سنرسلُ مَعَ فَقْرنا خمسةَ آلاف جُنَيه هديةً إلى الخَارج كلَّ يَوم مُقَابل نَفْخَة هَواء.

قالَ طلعتُ: يقولُ الناسُ إنَّ لي شيئاً من العلْم بالاقتصَاد! والله إنَّكَ يا عبدَ العَزيز أعلمُ به منِّي، وقَدْ ألجمتَ لسَاني، وأقمتَ عليَّ الحجَّةَ!

هَذا هُوَ الملكُ الرَّاحلُ في حوَاره ونقَاشه.

أخو نورة

أخوُ فاطمةَ، أخو سفّانةَ، أخو نورةَ.

إخوةٌ وأخواتٌ، وأبطالٌ وسيداتٌ، ورجالٌ وعظيماتٌ. كان للأخَوَات أثرٌ، وعندَ الغَاليات خَبَرٌ، ولَدى الكَريمات عبَرٌ.

كانَ لهُنَّ معَ أولئكَ الرِّجال قصةٌ، ولسيَرهنَّ عندَ أولئك البَوَاسل حكايةٌ.

فتلكُم فاطمةُ بنتُ الخطَّاب تقفُ في وَجْه أخيها عُمرَ بن الخطَّاب قبلَ إسْلامه، وتكونُ سبباً في هدَايته. فبعد أن علمَ بإسلامها جاءَها ثائراً، وأقبلَ إليها فاتكاً، ودخلَ إلى بَيْتها والشَّررُ يتطايرُ من عَيْنَيْه، وهَمَّ بأخْته فدفَعها، وارتطَم رأسُها بالحَائط، وسالَ الدَّمُ على وَجهها

فانتفضَت ثائرةً في وَجْه أخيها، وقالتْ: نَعَمْ، لقدْ أسلمْنَا يا عُمَرُ، وآمنَّا باللّه رَبّاً وبرسُوله نَبيّاً، فافعلْ ما بدَا لَك.

وتأثَّرَ الفاروقُ ـ رضيَ اللهُ عَنْه ـ حينَ رَأى الدَّمَ يسيلُ علَى وَجْه أخْته، واستحَى أن يضربَ امرأةً، ومَن المرأة؟ إنها أخته.

وأقبل يمسحُ الدَّمَ عن وجنَتَيْها، ويقولُ لهَا برفْق ووَدَاعَة: أخْتاه، أرُوني الكتابَ الذي تَقرؤونَ.

وطمعَت الأختُ بإسلام أخيهَا، ونسيت جُرحَها، وأحسَّتْ بعاطفَة الأخوَّة تطغَى علَى كُلِّ ألَم ذاقَتْه، ورغبَتْ في هداية أخيها الغالي وحبيبها الذي قسا عليها، ورأت أخاها وقد صغرَ أمامَها، وعرفَتْ أن الوقتَ قد حانَ لدَعْوَته إلى الإسلام.

وقالَتْ: أخي، إنَّ الكتابَ الذي نَقرؤُه لا يجوزُ أنْ تَمَسَّه.

قالَ: ولماذَا؟

قالتْ: يا أخي أنتَ نجسٌ بشرْكَكَ، ولستَ أهلاً أنْ تُمسكَ به، ودينُنا يقولُ عَن هذَا الكتَاب المقدَّس: ﴿لا يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرُونَ﴾.

يا أخي: قُم واغتسلْ.

ألا بُوركْت أيتُها الأختُ البارةُ، وجُزيت خيراً عن الإسْلامَ والمسلمينَ؛ فقد نهضَ أخُوك العملاقُ، وتضاءَلَ أخُوك القويُّ، وامتثلَ، واغتسلَ وهدأَ غضبُه، وأخزَى شيطانَه، وقرأَ قولَه تعالَى: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ...﴾.

ثُم قالَ: أختاهُ، أختاهُ، ما أحسنَ هذَا الكلامَ! وما أكرمَه! وأعلنَ إسلامَه.

لقدْ كنْت أيتُها الأختُ المباركةُ سبباً في الخيرِ له، وصاحبةَ فَضْل في هدايته.

أما الأختُ الأخرَى فسفّانة بنتُ حَاتم طيِّئ وأخت عَديٍّ التي قالَتْ وهيَ أسيرةٌ عند رَسُول الله ﷺ: يا محمدُ، هلكَ الوالدُ وغابَ الوافدُ فإن رأيتَ أن تخلّيَ عَنِّي فلا تُشمت بي أحياءَ العَرَب؛ فإنِّي بنتُ سيِّد قَومي. كانَ أبي يفكُّ العاني[1]، ويَحمي الذِّمارَ[2]، ويَقْري الضَّيفَ، ويشبعُ الجائعَ، ويفرِّجُ عَن المكْروب، ويُطعمُ الطعامَ، ويُفْشي السَّلامَ، ولَم يَرُدَّ طالبَ حاجة

(١) العاني: الأسير

(٢) الذمار: ما يلزم الرجل أن يحميه من عرض ومال.

قَطّ، أنا بنتُ حَاتم الطائيِّ. فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: يا جاريةُ هَذه صفةُ المُؤْمن حقّا، لو كانَ أبُوك مُسلماً لترحَّمْنا عَلَيه. خَلُّوا عَنْها فإنَّ أباهَا كانَ يحبُّ مكارمَ الأخْلاق، واللهُ يحبُّ مكارمَ الأخْلاق.

ثُم نظرَ إلى قَوْمه فقالَ: خَلّوا عَنْها؛ فإنَّ أباهَا كانَ يحبُّ مكارمَ الأخْلاق، ثم تابعَ قائلاً: ارحَمُوا عَزيزاً ذَلَّ، وغنيّا افتقرَ، ثُم قالَ لهَا: لا تتعجَّلي حتَّى تَجدي ثقةً يبلغُك بلادَك.

إنَّها امرأةٌ ذاتُ عَقْل ودهَاء، وفَصَاحة وبَلاغَة.. هلكَ الوالدُ فلا ناصرَ، وغابَ الوافدُ فلا مساندَ.

وقرَّرتَ الرَّحيلَ إلى أخيها عَديٍّ لتُعيدَه إلى الخَيْر والمَجْد. ويأذَنُ لها رسولُ الله ﷺ

ويكرمُها ويُعطيها ما يلزمُها من نَفَقَة، ويطلقُ الأسْرَى من قبيلة طيِّئ إكراماً لها، فتبادرُ الفصيحةُ البليغةُ وتدعُو له من أعمَاق قَلبها قائلةً: أصابَ اللهُ ببرِّكَ مواقعَه، ولا جعلَ لكَ إلى لئيم حاجةً، ولا سلبَ نعمةً عَن كَريم قَوم إلا وجعلكَ سبباً في ردِّها، شكَرَتْك يدٌ افتقَرَت بعدَ غنًى، ولا ملكَتْكَ يدٌ استغنَتْ بعدَ فَقْر.

وسافَرَت الأخْتُ إلى أخيها، وسارَت الفتاةُ إلى قَومها، وأقبلَت ابنةُ الكَريم على ديَارها. وعادَتْ بعدَ أن وجدَتْ مَن هُو أكرمُ من أبيهَا.

لقد أكرمَها المصطفَى ﷺ، وأطلقَ الأسرَى من قَوْمها، وكَسَاهَا وأعطَاها وغمرَها بفَضْله.

وقررتْ سفَّانةُ السفرَ إلى أخيها، وشدَّتْ رحالَها إلى ابن أبيهَا، وتوجَّهَتْ إلى بلاد الشَّام

غيرَ مُبالية بالأخطَار والأهوَال؛ فالأخ غالٍ، وعديٌّ عزيزٌ.

وسارتْ تحثُّ الخُطَى، وتواصلُ الليلَ بالنَّهَار. وبينَما عديُّ بنُ حَاتم قاعدٌ معَ أهْله بينَ نَصارَى الشَّام إذ رَأى من بَعيد ظَعينةً قادمةً، فأمعنَ النَّظرَ فإذا هيَ أختُه سَفَّانةُ.

قالَ عديٌّ مذهولاً: ابنةُ حَاتم.

قالَتْ سفَّانةُ موبِّخةً مقرِّعةً: القاطعُ الظالمُ، احتملتَ بأهلكَ وولدكَ وتركتَ بقيةَ وَالدكَ وعورتَك.

قالَ عديٌّ: أي أخَيَّةُ، لا تقُولي إلا خيراً، فوالله ما لي من عذر، لقد صنعتُ ما ذكَرْت.

واعتذرَ الأخُ إلى أخته، واستسمحَ عديٌّ سفَّانةَ.

وروَت الأختُ لأخيهَا خبرَها معَ رَسُول الله ﷺ، وبهرَ الأخَ قولُها، وقالَ لها: أي أخَيَّةُ صفي لي محمداً.

قالتْ: يا عديُّ، إيت هذَا الرجلَ فإنِّي رأيتُ فيه هَدْياً ورأياً، سيغلبُ أهلَ الغَلَبَة، ورأيتُ خصالاً تعجبُني، رأيتُه يحبُّ الفقيرَ، ويفكُّ الأسيرَ، ويرحمُ الصغيرَ، ويعرفُ قَدْرَ الكَبير. وما رأيتُ أجودَ ولا أكرمَ منهُ، فإن يكُن نبيّا يا عديُّ فللسَّابق فضلُه، وإن يكُنْ ملكاً فلن تزالَ في عزِّ اليُمْن وأنتَ أنتَ.

قالَ عديٌّ: والله، إنَّ هَذا هُو الرأيُ.

قالت سفَّانةُ: ابتدرْ[1] راغباً أو راهبًا؛ فقدْ أتاه فلانٌ فأصابَ منه، وأتاهُ فلانٌ فأصابَ منه.

(١) ابتدر: أسرع.

قالَ عديٌّ: فإذاً ماذا تَرَيْنَ في هذَا الرجُل؟

قالتْ سفانةُ تؤكِّدُ رأيَها: أرَى أن تلحقَ به.

قالَ عديٌّ: إنِّي لأرجُو اللهَ أن يجعلَ يَدي في يَده.

وعادتْ سفَّانةُ معَ أخيها إلى رَسُول الله ﷺ مبايعَين مُسْلمَيْن، ووضعَ عديٌّ يدَه في يد رَسُول الله ﷺ سنةَ سَبْع للهجْرة، وحسُنَ إسلامُه، ودافعَ عَن الإسْلام بكلِّ ما أوتي من دَهاء وقُوة.

هَذه الأختُ العظيمةُ أثَّرَتْ في أخيها وأقنعتْه، ونقلتْه من الظَّلام إلى النُّور، ومن الشرِّ إلى الخَير، وجعلتْ من أخيها بطَلاً من أبطَال الإسْلام.

ونتوقفُ عند أخي نورة، إنه الملكُ عبدُ العَزيز- طيّبَ اللهُ ثراهُ- الذي اعتزَّ بأخْته، وانْتخَى باسمها في ساحَات الوَغى ومَيادين الحَرب، وسَمعَه الغَادي والرَّائحُ، وهو يهتفُ باسْمها على رُؤوس الأشْهاد.

إنَّها عزيزةٌ كريمة، راقبَت البطلَ منذُ الطُّفولة ورعَت الأسدَ منذُ الصِّغَر.

وكانَ يبثُّها همومَه وذلكَ منذُ أن شبَّ عَن الطَّوْق، وكأنِّي به يخلُو بهذه الأخْت الغاليَة ويشكُو إليهَا الحالَ، ويقولُ لها: أختاهُ. أختاهُ، أنت الغاليةُ، وأنت العزيزةُ.

أختاهُ، أرْشديني، سَاعديني، آنسيني؛ لقد نفدَ صَبري، وقلَّتْ حيلَتي، وعظُم طُموحي.

أختاه، إن مُلكَنا ذهبَ، وإن مجدَنا غَبَرَ، وإن عزَّنا اندثرَ.

أختاه، هل يعودُ الماضي؟ وهل يرجعُ الفائتُ؟ وهل تقومُ الرايةُ؟ وهل تعودُ الزعامةُ؟

أختاهُ يا نورةَ الأنوَار، إنِّي أشفقُ علَى أبي وأرحمُ أسرَتي، وأرْثي لحالي، هل نعيشُ غرباءَ؟ وهل ندومُ بُعداءَ؟ وهل نظلُّ ضيوفاً؟ وهل نبقَى رُحَّلاً؟ إنَّ الليلَ لا بدَّ أن ينجليَ، وإن بعدَ العُسر يسرًا، ماذَا تَرَيْنَ؟ وماذا تقولينَ؟ تكلّمي، تحدَّثي، خفِّفي، هوِّني.

وتتنهَّدُ العظيمةُ الكريمةُ، وتزفرُ الجليلة الغاليةُ وتتأوه الأبيَّةُ الصارمةُ، وتَرى في عَبد العزيز الأملَ، وتعرفُ في أخيها الزعامةَ، وأنَّ عندَه

الشجاعةَ، وتطيِّبُ خاطرَه بكلمَات، وتروِّحُ عنه بابتسَامات.

وتعودُ الشقيقةُ لخدْرها، وتخلو الحُرَّةُ بنفسها، ويسرحُ بها الخيالُ، وتذرفُ دمعةً وتتبعُها بأخرَى، وتتساءَلُ وهي اللمَّاحةُ الشجاعةُ: هل يعودُ مجدُنا؟ ومن سيكونُ فارسُنا؟

وتتلفتُ الشقيقةُ الأبيةُ، وتتفرَّسُ في الأبنَاء وترمقُ الأولادَ، وتتأمَّلَ هذَا، وتنظر إلى ذاكَ.

ويعودُ نظرُهَا مرةً أخرَى لأخيها عَبد العَزيز وكلَّما رمقَتْ غيرَه عاد البصرُ إليه. وكلَّما لمحتْ سواهُ عادَ النظرُ إلى مُقْلَتَيْه.

وأحسبُها تخاطبُ عينيه، وتُناجي سمعه تُقوِّيه وتُشجعه، وتُرسلُ إليه رجاءَها، وتبثُّه أملَها،

وتقولُ له :

أخي الغَالي ، أخي السَّاهر ، أنتَ الأملُ بعدَ اللَّه ، وأنتَ الرجاءُ ، إنَّك الفارسُ الذي سيعيدُ مجدَ آبائه ، والبطلُ الذي سوفَ يستردُّ مُلْكَ أجدَاده .

أخي ، لا تصبرْ علَى الضَّيم ، ويا بنَ أبي لا تَقْبَل المهانةَ .

لقد فتَّشْتُ في الأسرة فلَمْ أجدْ سواكَ وبحثتُ في الرِّجال فلَم ألقَ غَيركَ .

ويأنسُ الفَتَى بأخته ، ويألفُ البطلُ شقيقَتَه ويجدُ عندهَا الشَّمَمَ والإباءَ ؛ فقدْ كانتْ ذاتَ عَقْل وأدَب ، ورأي وفراسَة ، وفَهْم ونَجَابَة وذكَاء وفطَانة .

كانتْ تدفعُه للبُطولة، وتحرِّضُه علَى الإقْدام وتشجِّعُه على المُغَامرة، حتَّى بلغَتْ به الجرأةُ وهوَ في طَوْر الفُتُوَّة، أن يقنعَ بعضَ الفتْيان بالسَّير إلى نَجْد وإثارَة بَعض العَشائر علَى ابْن رَشيد، وامتطى بعيراً هزيلاً خرجَ به معَ أصحَابه، ونزلُوا ببَعْض القَبائل فلَمْ يجدُوا من يسمعُ لَهُم، فعادَ رفاقُه ورجَعَ هُو ماشياً حيثُ ظلعَ بعيرُه.

وذهبَ إلى أخْته نورةَ، وأخبرَها بالمغامَرة، وقصَّ عليها المحاولةَ، وقد يكونُ اليأسُ والقنوطُ دبَّا إليه.

وأدركَتْ سليلةُ المُلك ووارثةُ المَجْد ما انتابَ البطلَ، وعرفَتْ ما خَامَرَ المُغامرَ فهتفَتْ به مُستنهضةً عزيمتَه مُحركةً نَخْوَتَه وقالَت له:

ارفَعْ رأسَك ولا تندُبْ حظَّكَ كالنِّساء، إن خبْتَ في الأولَى والثانية فسوفَ تظفرُ في الثَّالثة.

ولامسَ كلامُها فُؤَادَه، وحرَّك قولُها مشاعرَه ومَسَّتْ عباراتُها كُلَّ خليَّة في جسْمه، فكانَ قولُها كالكَهرباء التي تضيءُ، والقوة التي تحرِّكُ الآلات، وتبعثُ الحياةَ.

وتابَعت البطلَ تهزُّه وتدفعُه، وتُغْريه وتشجعُه، حتَّى صار اسمها لا يفارقه، وبات يَنتخي باسْمها في ساعَات الهَوْل فيقولُ: أخُو نورة، أنا أخُو الأنْوَر.

ويتحقَّقُ الأملُ لنورةَ، ويصدُقُ ظنُّ الشَّقيقة فيستردُّ البطلُ المُلْكَ وتتوحَّدُ البلادُ، وترَى نورةُ الخيرَ والمجدَ، ويظلُّ الصقرُ يزورُها ويكرمُها إلى أن توفِّيتْ - رحمها اللهُ - قبلَ وَفاته بسنَوات

وَجيزة، وكأنِّي به يردِّدُ مع الشاعر قوله:

أُسائلُ عَنْك بَعدَك كُلَّ مجد
وما عهدي بمجد عَنْك خَالي
حَصانٌ مثلُ مَاء المُزْن فيه
كتُومُ السرِّ صادقَةُ المقالِ
ولو كانَ النساءُ كمن فقدْنا
لفُضِّلَت النِّساءُ علَى الرِّجالِ
وما التأنيثُ لاسم الشمس عيبٌ
ولا التَّذكيرُ فخرٌ للهلال

إنَّ هذه الصُّورَ المشرِّفةَ تكشفُ عَن الجوانب الإنسانيَّة لأولئكَ الرِّجال، وتؤكِّدُ دَوْرَ المرأة في بناء الشَّخصيَّة وإعداد القَادة.

لقد زعمَ العائبونَ للعَرب والمسلمينَ أنَّ المرأةَ

مغبونةٌ، وأنَّ الفتاةَ مظلومةٌ، وأنَّ اسمَها عيبٌ وأنَّ ذكرَها عارٌ.

وقالُوا: إنَّكم قُساةٌ وجُفاةٌ، لا ترعَوْنَ حقوقَ النِّساء، ولا تُؤدُّونَ واجبَ الأمِّ والأخْت والزَّوجة والبنْت. وعَودةٌ إلى الماضي، عَوْدةٌ لهذه النَّماذج النَّيِّرة، خير دَليل علَى الرعَاية والعنَاية.

إن معاملةَ الملك عَبد العزيز ـ رحمَه اللهُ ـ لأخْته وإكْرامَه لشقيقته، واعتزَازَه وانتخاءَه باسْمها لتأكيدٌ لمكَانة المَرْأة عندَ الرَّاحل، وتجسيدٌ لدَوْرها، وردٌّ على الشانئين والشَّامتينَ، رحم الله الأخت وأخاها، وأسكنهما فسيح جناته.

الشُّيوخُ أبْخَص

سألَ سائلٌ ذاتَ يَوْم:

ما المرادُ بكلمَة الشُّيوخ أبخَص؟ وأردفَ قائلاً: إنِّي أسمعُ هَذه الكلمةَ بينَ الحين والآخَر ولا أعلمُ مدلولَها ولا هدفَها.

قالَ الرَّاوي: هيَ أنَّ الحاكمَ أدرَى وأعلمُ وأنَّه أعرفُ وأخبَرُ.

قالَ السائلُ: هَذه عباراتٌ كانَتْ في المَاضي وأصبحَت من التَّاريخ، وهي جملةٌ لم نعُدْ نسمعُ بهَا.

قالَ الرَّاوي: إنَّ لهَذه الجُملة قصةً، ولهَذه العبَارة حكايةً، وإنَّ الملكَ عبدَ العزيز -طيَّبَ اللهُ ثَراه- اعتادَ سماعَها، ونَهرَ أحَدَ مستشاريه يومَ أن سمعه يردِّدُها.

إنَّ هَذه من الجُمَل التي كَانتْ سائدةً، وجاءَ العلمُ فطمرَها.

إنَّ العلمَ استثمارٌ وبناءٌ، وإنارةٌ للعُقُول وصَقْل للأذهان.

فقدْ كانَت الأمِّيَّةُ في المملكة ضاربةً أطنابَها ناصبةً خيامَها، جهلٌ وخوفٌ، وخُرافةٌ وبساطةٌ.

وجاءَ الملكُ عبدُ العَزيز فوحَّدَ الوطنَ، وربطَ الأقاليمَ بعضَها ببَعض، وكوَّنَ مجداً، وبنَى كياناً نستظلُّ بظلِّه، وننعَمُ بخَيْره.

واستقرَّتْ للملك عَبد العَزيز الأمورُ، وأقبلَ الناسُ زُرافات ووحَداناً، ينشُدونَ عَونَه ويطلبونَ دَعْمَه.

وكـانَ الوافـدون أجناسـاً وأشكالاً، وألـواناً وأنواعاً، ولهجات وعادات وآراءَ وطباعاً.

وكـانَت المملكةُ أقاليمَ وقبائلَ وأفـخاذًا، فهذا قـحطانيٌّ، وذاك غـامـديٌّ، والآخـر شـمَّـريّ والرابعُ شـهـرانيٌّ، والخـامس هُذليٌّ، والسـادس خالديٌّ، وهكَذا.

ولكلِّ قَـبيلة عـاداتٌ وتقـاليـدُ، ولكلِّ إقليم أهواءُ ورغـبـاتٌ. وكـانَت اللهـجـاتُ مـتـعـددةً والعبـاراتُ مختلفةً، تكادُ تسمعُ ألسناً متعددةً ولغات متباينةً، وهُم عربُ الصَّحراء، ورجالُ العربيَّة الخَالدة.

وهؤلاء الأجناسُ لديهـم ثَاراتٌ، وعندهم نَعـراتٌ، وبينهم عـداواتٌ، ولا بدَّ من الحَـزْم والجَزْم. وكـيفَ يقـودُ عبـدُ العـزيز خيـولَهم؟

وكَيفَ يُمسك أعنَّتَهم؟

وفتحَ -رحمَه اللهُ -أبوابَه، وعيَّن أمراءَه وسَنَّ أنظمَتَه، وشرعَ تعاليمَه.

وكانَ كتابُ الله وشرعُه الخالدُ منهجَ حُكْمه ودستورَ سُلطانه.

وجاءت الوفودُ وكثُرَت الطَّلبات، وتعدَّدَت الرغباتُ، وألفَ كثيرٌ من النَّاس ألفاظاً يسمعُونَها ولا يَعُونَها، ويردِّدُونَها ولا يعقلونَها.

إن عبدَ العَزيز كثيراً ما يسألُ رجالَه ويستشيرُهم في الكَثير من الأمُور، فكانَ بعضُهم يقولُ:

الشُّيوخُ أبْخَصُ.

أي الحاكمُ أعلمُ وأدرَى.

وكانت هذه الجملةُ تتكررُ، وهذه العبارةُ تتردَّدُ، يقولونها مجاملةً، ويرددونها طاعةً.

لقدْ كانَ بعضُ الرِّجال يخشَوْنَ أن يخالفُوا عبدَ العزيز الرأيَ، ويحذَرون أن يقولُوا له فكرةً أخرَى.

إن أولئكَ لا يعلمونَ أنَّ عبدَ العزيز كبيرٌ وعظيمٌ، يعلمُ أن الكَمال لله وحدَه، ويعرفُ أن العصمةَ لكتاب الله.

إن عبدَ العزيز بشرٌ يخطئُ ويصيبُ، وهو إنسانٌ ليسَ بالكامل وليسَ بالناقصِ.

وذاتَ مَرة سألَ عن أمْر من الأمُور.

وجاءَ الجوابُ: الشيوخُ أبخصُ.

وأرادَ أن يُعلِّمَ المسؤولَ، ويُربِّي المستشارَ

ورغبَ أن يوضِّح لهُم منهجَه وأسلوبَه.

إنَّه يريدُهم أن يتشجَّعُوا ويقولُوا، ويودُّ أن يعبِّرُوا عَن آرائهم بأدَب وهُدُوء، وبتجرُّد وعَقْل.

ولهذَا قالَ: إذا كانَ الشيوخُ أبخصَ فلماذا يسألُ؟! وإذَا كانَ الحاكمُ أدرَى فلِمَ يستشير؟!

لقد كرهَ -رحمه الله- هذه الجملةَ، ومنع هذه العبارةَ على مستشاريه.

وأمرَ المستشارينَ أنْ يقولُوا رأيَهم وأن يوردُوا اعتقادَهم. قالَ ذاتَ يَوم لأحَد مستشاريه: إنِّي في حاجة إلى مَنْ يصارحُني؛ فإنَّ مَنْ يُطريني ويتملَّقُني كثيرونَ، وكثيرونَ جداً. وطالَمَا ضاقَ صَدْري من سَماع قَوْلهم «الشُّيوخُ أبخصُ»، أي

السلطانُ أعرَفُ وأعلمُ.

رحمَ اللهُ الراحلَ، يكرهُ التَّملُّقَ ويمقتُ الإطْراءَ، يعلمُ كُنْهَ الرِّجال وحقيقةَ المتحدِّثينَ.

أصادق نَفْسَ المَرْء من قبل جسْمه
وأعرفُها في فعله والتكلُّم

إنَّ القلوبَ آيةٌ من آيَات اللَّه، وسرٌّ من أسرَاره تَلقَى الرجُل فتعرفُ أنه لكَ أو عليكَ، وتنظرُ إلى المتحدِّث فتعلمُ كَذبَه وصدقَه وإطراءَه ونفاقَه.

والنفسُ تعلمُ من عَيْنَيْ مُحدثها
إن كانَ من حزْبها أو منْ أعَاديهَا

إنَّ عبدَ العَزيز تعلَّمُ في مدرسَة الحَياة، وكسبَ في ميدَان القتَال، وحاورَ وناقشَ، وسالمَ وهادنَ، وفاوضَ رجالَ السِّياسة وعُظماءَ القَادة.

إنَّه يُكبِـــرُ الرَّأيَ، ويُجلُّ العلمَ، ويقـــدِّرُ العلماءَ.

مَدّ يدَه ذاتَ يَوْم لمعاهَدة أحَد المستشارينَ علَى أنْ يكونَ صادقاً وفيّا مخلصاً أبيًا، وأن يواليَ مَن والاه، ويُعادي من عاداه. ودارَ الحوارُ التالي:

عبدُ العزيز: هيَّا صافحْني وبايعْني.

المستشـــارُ: علامَ؟

عبدُ العزيز: علَى الطاعَة، ومُوالاة من والاني ومُعاداة من عَاداني.

المستشـــارُ: أمَّا الطاعةُ وموالاةُ من وَالاك فحقٌّ لا ريبَ فيه، وأمرٌ، لا خلافَ عَلَيه.

عبدُ العزيز: والأمرُ الآخرُ؟

المستشارُ: معاداةُ من عاداك، في ذلكَ نظرٌ.

عبدُ العزيز: وكيفَ؟

المستشارُ: إنَّ ذلكَ للنبيِّ ﷺ؛ فهُوَ المعصومُ، ومَن عاداه فقدْ عادَى اللهَ.

عبدُ العزيز: وماذَا تَرى؟

المستشارُ: أنتَ بشرٌ تخطئُ وتصيبُ.

عبدُ العزيز: صدقتَ

المستشارُ: ألا تَرى أن تتركَ لي حقَّ البَحث في سَبب العَداء؟

عبدُ العزيز: لكَ ذلكَ.

المستشارُ: قد يكونُ سبب العَداء وشايةَ

واش، وقَد يكونُ خَطأ يمكنُ إصلاحُه، والخيرُ في رجوعٍ مَنْ عاداك إلى صَوابه.

عبدُ العزيز: صحيحٌ.

المستشارُ: أليسَ ذلكَ خيرًا من استمراره على عدائك؟ إنَّك لستَ في حاجة إلى الإكثار من الأعداء، بل أنتَ في حاجة إلى الإكثار من الأصدقاء.

عبدُ العزيز: صدقتَ

المستشارُ: إنِّي أعتقدُ يا مولايَ أنَّ أولَ واجب عليّ وعلَى رجالك أن نستأصلَ جذورَ الضَّغينة والحقْد من النُّفوس، وأن تصفوَ النفوسُ لك.

عبدُ العزيز: نِعْمَ القولُ هذَا.

المستشارُ: وإذا اتضحَ الإصرارُ والعداءُ من أعدَائك وحَاسديك وجبَ علينا مناصبتُهم العدَاءَ.

عبدُ العزيز: هذا حقٌّ، وإنِّي لَمْ أسمعْ من أحَد تحليلاً معقولاً لهذَا الموضُوع كما حللتَ.

ألهمَنَا اللهُ الصَّوابَ وسدَّدَ خُطانَا.

المستشارُ: شُكْراً يا سيِّدي، وأسألُ اللهَ التَّوفيقَ.

عبدُ العزيز: ستكونُ من اليوم من المستشارين الخواصِّ.

واستمرَّ الرجلُ معَ الرَّاحل، وقَويت الصِّلةُ وزادَت المودَّة.

هذه صفاتُ الرَّاحل، إكرامٌ للعلماء، واحتواءٌ للرِّجال، وسيطرةٌ على العقُول، وتسخيرٌ للنَّابهين.

وهذه هي العظمةُ والعبقريةُ، وهَذه هي الزعامةُ والقيادةُ.